نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمري

غفر الله لها ولوالديها

ألقي في شعبان ١٤٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثامن عشر/ يوم الثلاثاء 21 شعبان 1441

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله حمدا كثيرا طيبا مباركا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يتقبل منا هذه الساعة، وأن يثقّل بها موازيننا، وأن يزيدنا بها إيمانا، ويجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

كنا أمس بفضل الله قد ناقشنا مسألة الصبر، وقبلها ناقشنا الرضا، وأنها منزلة أعلى، ثم ناقشنا الأصل وهو الصبر، وتبين لنا حاجتنا العظيمة للصبر في حياتنا، وهذا باب عظيم يُرغب أن يعاد ويزاد دائما، من الضروري أن نسمعه ونقرأه ونتعلمه كثيرا، والدليل على ذلك كثرة ما ورد في القرآن من الأمر بالصبر والأجور المترتبة على الصبر، وكثرة الوصايا التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في مسألة الصبر؛ فدل على أنه أمر عظيم، ولا بد من تكرار الكلام عنه، تكرار القراءة فيه، فهمه بعمق، وطلب الله عز وجل الإعانة عليه.

وقد تبين في نقاشنا في اللقاء السابق أن طلبنا للصبر لا يستلزم تصور المصاب، وإنما نحن نطلب الله عز وجل أن يصبرنا على الطاعة، وأن يعيننا عليها، وأن يصبرنا عن المعصية، وأن يكُفّنا عنها، ويأتي بعد ذلك الصبر على الأقدار؛ فحتى الشوكة تشاك الإنسان يحتاج أن يصبر فيها، ففي كل أمر إنا لله وإنا إليه راجعون.

اليوم إن شاء الله تبقى معنا من مسألة الصبر جملة غاية في الأهمية في ختام كلامه عن الصبر

قال ابنُ رجب -رحمه الله-:

(انتظار الفرج بالصبر عبادة، فإن البلاء لا يدوم

اصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتَجَلَّـــــــــدِ ** واعلمْ بأنَّ الضُرَّ غيرُ مُؤَبَّـــــــدِ

واصبرْ كما صَبَرَ الكرامُ فإنّهـــــا ** نُوَبٌ تَنُوبُ اليومَ تُكْشَفُ في غدِ

إذا غُمِسَ أعظم الناس بلاء في الدُّنْيا في نعيم الجنة غمسة، قِيلَ لَهُ: «هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ بُؤْسٌ قَطُّ ؟ قَالَ : لَا يَا رَبِّ»[1]

[1] ( ) يشير المصنف لما أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

يا نَفسُ ما هُوَ إِلّا صَبرُ أَيّامِ ** كأَنَّ مُدَّتُها أَضغاثُ أَحلامِ

يا نفسُ جوزي عن الدنيا مبادِرةً ** وخلِّ عنها فإن العيش قُدّام

وقال غيره:

ما هي إلا ساعة ثم تنقضي ** ويذهب هذا كله ويزول)

هنا جملة مهمة جدا لابد من فهمها فهما دقيقا؛ وهي(**انتظار الفرج بالصبر عبادة**)

فإن الإنسان يصبر على أمور متعددة كما تبين لنا؛ يصبر على الطاعة يقوم بها، وعن المعصية ينحبس عنها، وعلى الأقدار التي وقعت عليه.

فإذا نظرنا في هذا كله لابد أن يكون في نفس الإنسان وقت صبره أملٌ عظيم ينتظر معه الفرج؛ فمن ذلك **وهو يطيع الله مثلا بالصلاة** التي هي عماد الدين، ويجد نفسه لا بد أن يتصبر من أجل أن يقوم بالصلاة، لابد أن يتصبر من أجل أن يؤدي النوافل، فلم تطاوعه نفسُه بعدُ لأن يرغب في الوقوف بين يدي الله -الله يعيذنا من شر أنفسنا- يغيب عن نفوسنا شرف هذه الطاعة، يغيب عن نفوسنا كيف أن الله ينادينا للوقوف بين يديه، وكيف نحن في مفخرة عظيمة وفضل ومنّة ونعمة أن ينادينا رب العالمين لنقف

بين يديه، يغيب هذا المعنى الإيماني المهم، نتيجة أن الإنسان يعافس الحياة، ويضعُف الإيمان خصوصا بمثل هذه الحقائق المتكررة عليه، فتأتيه لحظات يتمنى أن يكون ساعيا إلى الصلاة سعي المشتاق الراغب الذي يحب أن يصلي، لا يريد أن يتخلص من الصلاة، سعي المحب للقاء محبوبه، يتمنى يصل لهذه الحالة.

فنقول: تصبّر على مواعيد الصلاة، صلِّها في وقتها، واجمع قلبك ما استطعت في الصلاة، وانتظر الفرج من الله ،اصبر في أدائها، وانتظر الفرج من الله؛ يعني صبرك في أداء الصلاة، ويكون في قلبك أمل أن الله يفرج عليك هذه الحال، وتتحول من حال الصلاة كأداء واجب إلى الصلاة كنداء من الله، وفرح من العبد و رجاء، انتظر هذا الفرج، اصبر وفي قلبك انتظار الفرج، ومثله في كل عبادة.

وكل مرة تجد **نفسك تتصبر من أجل تنهى نفسك عن معصية**، تصبر وأنت في قلبك انتظار الفرج، تصبر وأن الله سيفرج عليك في وقت من الأوقات، فتصبح هذه المعصية التي تصبرت اليوم على تركها غدًا نفسك ترفضها وتهرب منها، ومع ذلك يُكتب لك أجر الصبر عن المعصية، ويُكتب لك أجر انتظار الفرج.

وهكذا في الأقدار هذه المسألة تظهر بوضوح في الأقدار؛ هذه العبادة وهي انتظار الفرج تظهر بوضوح في أقدار الإنسان؛ فإن الإنسان قد يصاب في أبنائه بمشاكل: سواء كانت صحية، أو أخلاقية فإذا يئس من تغيير الحال تجده لا يستطيع أن يصبر، وتجده كثير الشكوى للخلق، لكن إذا كان ينتظر الفرج فتجده يتصبر حتى لو كان في قلبه حزن.

ومثال ذلك يعقوب عليه السلام فإنه هو الرجل الحزين على فقد ابنه المحبوب، ومع ذلك هو الذي يقول لأبنائه {وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ}[2]، فإن حزنه لم يكن فيه انقطاع أبدا لإنتظار الفرج، بل العكس كان على يقين تام أنه سيلقاه و سيجده، لكن الشوق هو الذي كان يأتي بالأحزان، وليس اليأس من لقاء يوسف عليه السلام، إنما الشوق وتطاول الأيام هي التي تأتي بالأحزان، لكنه مع ذلك كان صابرا، منتظرا للفرج، ما يئس أبدا من روح الله.

فبهذا نفهم أن الإنسان يكون صابرا حقا إذا كان في صبره ينتظر الفرج فمثلا إذا فقد الإنسان محبوبا -الله يرحم موتى المسلمين جميعا ويفرج الكرب عن أهل الإسلام إنه سميع الدعاء، يكون في قلبه حزن لكن يتصبر وينتظر من رب العالمين أن

---

[2] ( ) يوسف: 87

يفرج عليه بجبرٍ يجبر قلبه به فيُحفظ له الأجر وما يحصل له أبدا الاعتراض على القدر فهذه عبادة عظيمة عبادة انتظار الفرج، كل مظلوم يصبر وهو منتظر الفرج من رب العالمين، وكل مكلوم يصبر وهو منتظر الجبر من رب العالمين، وكل صاحب حاجة يصبر وفي قلبه انتظار الفرج أن الله يقضي له حاجته، ونحن في هذا الزمان الذي حُظِر علينا الاجتماع بأبنائنا وأقاربنا وأرحامنا وأحبابنا وطلبة العلم ننتظر الفرج من رب العالمين، نصبر ونحتسب، ونرضى بما قسم الله، ونراه خيرا كله، ولا نيأس من روح الله، بل ننتظر الفرج من الله.

يقول (**فإن البلاء لا يدوم**)

هذه سُنّة الله؛ البلاء لا يدوم، نسأل الله أن ينكشف عنا هذا البلاء، وعن المسلمين وقد لانت القلوب، وحصل التضرع، ووقع من الناس ما بسببه يُرفع عنهم عذاب الدنيا والآخرة، يا رب وفق المسلمين جميعا إلى ما تحب وترضى، وفقهم إلى التوبة والإنابة وإلى التضرع والانكسار.

هذا واجبنا جميعا أن نستغفر الله، ونتوب إليه؛ نستغفر الله لأنفسنا ولجميع المسلمين، اللهم اغفر لنا، واغفر للمسلمين والمسلمات، مع يقيننا أن البلاء لا يدوم، لكننا نرجو من الله أن

ينكشف عن قلوب لانت، ونفوس كسرت، وخضعت وذلت، وعرفت الشأن العظيم التي هي فيه.

فالحمد لله رب العالمين هذا وكلنا أمل أن ينفعنا الله بهذه الأيام و بصبرنا ورضانا بما قدّر علينا أن ينفعنا به لما نلقاه.

يقول: (**اصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتَجَلَّـــــــــدِ ** واعلمْ بأنَّ الضُرَّ غيرُ مُؤَبَّـــــــدِ**

واصبرْ كما صَبَرَ الكرامُ فإنّهـــــا ** نُوَبٌ تَنُوبُ اليومَ تُكْشَفُ في غدِ)

فإذا كان هذا اليقين في قلب الإنسان إنه لا بد أن تنكشف، وهو يرجو أن تنكشف عن خير، منتظرا فرج الله، فبهذا يقوى في قلب الإنسان الرجاء، وينتفع بما يمر عليه من البلاء.

إذا طالت به الأيام وهو باقٍ في البلاء؟!

يعني مثلا امرأة ابتليت بأنه لا ذريه لها، ما قُدر لها الذرية، ما وُهبت، وعاشت وعاشت ولم ينكشف هذا عنها، وأخرى ما وجدت زوجًا، أو أخرى ظُلمت، والدنيا فيها بلاءات؛ فهو ينتظر الفرج وما أتى الفرج!

نقول: ليس بهذه الطريقة ننظر للأمور، الحمد لله الفرج سيأتي عاجلا أم آجلا، فإذا حُبس وتأجّل صاحبه في تلك الحال يشكر ربنا أنه لم يتعجل له الفرج، وقد أورد ابن رجب هنا ما يؤيد هذا المعنى فقال:

(إذا غُمِسَ أعظم الناس بلاء في الدُّنْيا في نعيم الجنة غمسة، قِيلَ لَهُ: «هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ بُؤْسٌ قَطُّ ؟ قَالَ : لَا يَا رَبِّ»)

فإذًا بهذا يفُهم أن الفرج ليس شرطا أن يكون في الدنيا، مع أن كثيرا من الناس يأتيهم الحمد لله الفرج في الدنيا، أو يأتيهم من روحه شيء، يأتيهم من جبر الله، يأتيهم من إنزال الرضا من الله، لكن يتم لهم هذا الفرج كله يوم أن يلقون ربهم.

وعلى كل حال مهما طابت حياتنا وتوسعت علينا فنحن في النهاية في ضيق من الدنيا، وفرجنا في جنات النعيم، نسأل الله أن يفرج علينا وعلى المسلمين الأحياء والميتين بأن يدخلوا جنات النعيم فيرون السعة ويعيشونها بأبدانهم وأرواحهم.

ذكر قول الناظم:

(يا نَفسُ ما هُوَ إِلّا صَبرُ أَيّامِ ** كأَنَّ مُدَّتُها أَضغاثُ أَحلامِ)

هذه هي الحقيقة؛ انظر إلى الحياة، الذي مضى كأنه حلم، والآن هذه الأيام من كثرة تسارع الأمور كأنها أوهام، كأنها أحلام.

(يا نفسُ جوزي عن الدنيا مبادِرةً ** وخلِّ عنها فإن العيش قدام)

العيش قُدّامٌ أمامك في جنات النعيم.

(وقال غيره:

ما هي إلا ساعة ثم تنقضي ** ويذهب هذا كله ويزول)

وهذه هي حقيقة الدنيا، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن عرف الحق وتيقن به، وعمل به.

بسم الله نبدأ الآن في الجملة الجديدة من الحديث وتعليق ابن رجب عليها

قوله ﷺ: «وَاعلم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»

(وقوله ﷺ: «وَاعلم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»

هذا موافق لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[3]

[3] ( ) الأنفال: ٤٥.

وقوله تعالى: {الْآَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[4]

وقوله تعالى في قصة طالوت: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[5]

وقوله تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}[6] ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في الأمر بالصبر عند لقاء العدو كثيرة جدا)

يقول النبي صلى الله عليه وسلم «وَاعلم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»، أي أن هذه ثنائية لا تنفك وإن طالت الساعات والأيام والأعوام، لكن هي ثنائية ما يأتى نصر إلا إذا سبقه صبر.

واستدل بآيتين في سورة الأنفال:

---

[4] ( ) الأنفال: ٦٦.
[5] ( ) البقرة: ٢٤٩
[6] ( ) آل عمران: ١٢٥

الآية الأولى آية (45)، والآية الثانية آية (66)

نبدأ في النظر إلى الآية الأولى وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا}، وهذا أمر مهم أنْ تلاحظ أنّ الخطاب هنا للذين آمنوا.

{إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً} ماذا تفعلون؟

هناك فعلان:

1- الفعل الأول: الثبات.
2- والفعل الثاني: ذِكر الله.

أي أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالثبات عند لقاء العدو، وذكر الله كثيرا.

ثم في آخر الآية بيّن لنا ربنا أن ذلك سبب للفلاح؛ { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. **وعلى القاعدة المشهورة أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده فتدل هذه الآية على النهي عن عدم الثبات.**

فإذن الواجب عليك يا أيها المؤمن أن تكون ثابتا، ومما يعينك على الثبات كثرة ذكر الله، وهذا يوصلك إلى الفلاح، فلا تفرّ بل

كن صابرا، تمسَك، لا تكن جبانا، بل كن صابرا متمسكا، باقيا في مكانك.

ولذلك ورد في الحديث «**أيُّها النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوا لقاءَ العَدوِّ، وسَلوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقيتُموهم فاصبِروا، واعلَموا أنَّ الجَنَّةَ تَحتَ ظِلالِ السُّيوفِ**»[7]

فمن هنا فُهم أن الإنسان لما يقابل العدو لابد أن يكون صابرا، وهذا سبب للنصر، لكن ما الذي يأتي بهذا الصبر في هذه المواقف الصعبة؟

كثرة ذكر الله؛ فالعبد عليه ألا يفتر عن ذكر ربه، وفي هذه الحالة يكون الإنسان قلبه شديد الانشغال بالعدو، فيقال حتى في هذه الحالة التي يكون القلب أشغل ما يكون، وأكثر ما يكون همًّا يقال له في هذه الحالة أكثر من ذكر الله، والتجئ إلى الله في الشدائد، وأقبل عليه بكليّتك، وكن فارغ البال، واثقا بأن لطفه لا ينفك عنك في حال من الأحوال، ولا تشعر بالتخاذل، بل في تضاعيف الأقدار والمصاعب استمد من الله، واستعن بالله، واستظهر على كل عدو بذكر الله وأنت مترقب للنصر.

---

[7] ( ) صحيح البخاري: 2965

الله يقول {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} يعني تفوزون بما أردتم، وتظفرون به، فيحصل لكم النصر والمثوبة.

فبهذا فهمنا من هذه الآية أن العبد عند أصعب المواقف المفروض أن يكون ثابتا، ولكى يكون ثابتا لابد أن يستعين بالله، ويذكر الله، وهذا يؤدي إلى أن يكون ممن أنعم الله عز وجل عليه بالفلاح، فحصلت له المصلحة في الدنيا وفي الآخرة.

وفي آية الأنفال أيضا آية (66) يقول الله عز وجل:

{الْآَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}

وفيها تفاصيل في مسألة الجهاد، والآية فيها وعد من الله أن عدد المؤمنين وإن كان قليل، فإنه يُنصر على الكافرين، ويغلب الكافرين.

في آخر الآية ظهر الشاهد من هذه الآية في هذا السياق قال الله { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}، معنى هذا أنّ مَن صبر ولزم مكانه مهما كثُر أعداؤه، ومهما اشتد النزال عليه سيكون الله معه، وإذا كان الله معه لا يغلبه أهل الأرض كلهم، فالله إذا كان مع العبد

يكون معه بنصره وتأييده، وإذا كان الله معك إذن سيكون على عدوك، فيحصل له من الخذلان ما يحصل.

{وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} فإذا كان معهم لا بد أن ينصرهم، فهذا وعدٌ من الله بالنصر.

وهذه الحقيقة إذا كانت في القتال في ساحات الجهاد، فهي أيضا في معارك الحياة؛ كلما صبرت نصرك الله، وكما سيتبين بعد ذلك في كلام ابن رجب ينصرك على نفسك، وعلى شهوتك، وعلى هواك، وعلى أعدائك الذين يجرونك إلى الشر، وعلى الشيطان الرجيم إلى أن تنتصر على أعداء رب العالمين من المنافقين، لكن شرط النصر أن يحصل منك صبر. فهذه هي الجملة المقررة؛ «وَاعلم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»، وأنت تتخاذل وتعطي نفسك على هواها، وتسير كما تريد، وتريد من الله عز وجل أن ينصرك على نفسك، وعلى هواك، وعلى كسلك، وعلى عدم التزامك بالطاعات.

تريد أن تختم المصحف في عشرة أيام، ولا تصبر على القراءة، ولا تصبر أن تلزم نفسك بما شرعت ودخلت فيه، وتتكلم عن خطط طويلة المدى، وأنت لم تنفذ الخطط قصيرة المدى التي في يومك نفسه، فكيف تريد أن ينصرك الله ويحقق لك أمانيك؟ لابد أن تعلم أن النصر مع الصبر، لأجل أن تنجح لابد أن تصبر.

فدائما كن صاحب عزيمة، وهذا سيظهر في قصة طالوت وقتاله والقوم الذين كانوا معه، وكيف كانت حالهم من جهة انقسامهم إلى ضعفاء في مسألة الصبر، حتى أنهم لم يحتملوا مسألة مرورهم بالنهر، وما حصل فيها من ابتلاء من الله عز وجل؛ لأنهم يفتقدون العزيمة، وهذه مشكلة عظيمة، افتقاد العزيمة.

فقال عز وجل {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ}، وهي القصة مشهورة في سورة البقرة في أواخر سورة البقرة؛ أن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يكون عليهم ملك يقودهم للقتال.

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} يعني خرج بالجيش، وخرجوا معه، طالوت أخذهم في أرض قفرة، فحصل أن أصابهم حر وعطش، فقال لهم طالوت {قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي}، يعني ليس هو من أشياعي الذين يقاتلون معي عدوي.

{وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} يعني الذي لم يذُقه فيكون مني.

{إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} يعني واحدة فهذه لا بأس بها، بمعنى أنه ما أسرف في الشراب.

فهذا الجيش الذي كان معه ليس بقادر أن يصبر {فَشَرِبُوا مِنْهُ} يعني إلى حد الارتواء.

{إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} لم يشربوا.

{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ} جاوزوا النهر: طالوت، والذين آمنوا معه، والجيش كله.

أي الذي جاوز النهر طالوت والفئتين:

- الفئة التي شربت.
- والفئة التي لم تشرب.
- {قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} الذين أفرطوا في الشراب، وصلوا حد الارتواء قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، لأن النصر مع الصبر، لم يقدروا أن يصبروا عن النهر فذهبت شجاعتهم.
- والفئة الثانية: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ} يظنون أي يتيقنون، والمقصود أن عندهم قوة يقين بلقاء رب العالمين.

{ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} بيّنت هذه الفئة المؤمنة الصابرة ما هي سنة الله؟ بيّنت أنه حتى إذا كانت حتى الفئة قليلة فالله مع الصابرين؛ ينصرهم.

وهذا الذي حصل بعد ذلك؛ أنهم لما برزوا لجالوت وجنوده ودنّوا منهم قالوا: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[8]

{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} يعني كأنه يصب عليهم الصبر صبّا، وأكرمنا به لأجل أنه لما تأتيهم جراحات لا ينزعجون لها، أو يتألمون بها ويلتهون عن مقصودهم، **أول شيء طلبوه من ربنا هو الصبر؛ لأنه ملاك الأمر في النصر على الصبر، فإذا حصل الصبر حصل النصر.**

ثم قالوا {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} يعني زِدنا وثبت أقدامنا في ميدان الحرب بحيث إننا ما نهرب.

{وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أتت بعد ما طلبوا والصبر، وثبات الأقدام اللذين هما المقدمتان لحصول النصر.

دعاؤهم هذا يدل على أنه أي إنسان حزبُه أمر، ينبغي مباشرة أن يسأل ربنا المعونة والتوفيق، ويعلم أن هذه المعونة والتوفيق يحصلان لما ربنا ينزل عليه الصبر، كأنه يقول يا رب أنا لست كسلانا، وأريد ان تقضي لى الأمور، وأنا جالس مستريح، بل أفرغ عليّ الصبر، وساعدني، ووفقني، ويكون الإنسان في تلك

---

[8] ( ) البقرة: 250

اللحظة منقطع إلى الله، أن الله هو الذي ينزل عليه الصبر، ويسدده ويوفقه، وما يأتي في مخيلة الإنسان أي أحد من الناس بل ينقطع لربنا ويعرف أنه هذا لو حصل فهو مقدمة النصر؛ أن يسأل الله المعونة والتوفيق، وينقطع إليه سبحانه وتعالى.

من أجل ذلك ربنا قال مباشرة {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ} والفاء تدل على أن هذا الشيء حصل بسرعة رغم إنهم قليلون.

الكثيرون هؤلاء -كما هو ظاهر- قد وقع منهم الجبن والكسل، وذهبت شجاعتهم بسبب أنهم لم يصبروا.

إذًا هذه القصة المشهورة تؤكد هذا المعنى؛ وهو أن أن النصر ما يكون إلا مع صبر، هذه سنة الله؛ أنك لكي تعلو لابد أن تصبر.

فتصور كيف الحياة: تُبتلى بأحد، وتبتلى بمزعجات، تُبتلى بأمور في نفسك وفي غيرك، أحد يتسلط عليكِ، ويكون في نفسك انزعاجات تصبر عليها، وتتقدم، وتفعل ما يجب عليك، وتستعين، فإذا حصل هذا منا إذا نبشر بنصر الله.

بقي معنا آيه التي هي آية آل عمران:

{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}، هذه الآيات في آل عمران تحتاج إلى دراسة تفصيلية؛ لنرى كيف الله عز وجل علّم

الأصحاب الكرام؛ علّمهم عنه سبحانه وتعالى، وعن سُننه بصورة تجعلهم الشجعان الأقوياء الحاملين لدين الله.

فهذه الآية فيها خبر عن سنة الله عز وجل، كيف يعامل خلقه، هذه السورة في غزوة أحد، والنبي صلى الله عليه وسلم يُذَكّر بما كان في غزوة بدر في الآيات السابقة؛ {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[9].

يعني هذا الأمر في غزوة أحد ذكّرهم الله بما حصل في غزوة بدر ،وأخبرهم أن الله عز وجل يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من ملائكته منزلين إذا أنتم ماذا فعلتم؟

لو قرأتم في التفسير ستجدون أن المفسرين مختلفين في كون هذه الآيات في بدر، أم أنها في أُحُد.

والذي يظهر -والله أعلم- أنها في أُحُد؛ يعني ذكّرهم الله بما كان في بدر ووعدهم في أُحُد إنهم إذا قاموا بهذا الشرط نزّل عليهم الملائكة، ما هو الشرط؟

[9] ( ) آل عمران: 123-124

قال عز وجل {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا} معنى ذلك إنه لو حصل منكم الصبر والتقوى سينُزل الله عليكم خمسة آلاف من الملائكة، فكان شرط النصرة أن يصبرو ويتقوا.

فلما حصلت المخالفة كما تعلمون من الرماة تخلف الشرط وهو الصبر والتقوى، فتخلف النصر، وتخلف إنزال الملائكة.

(وقال عمر الأشياخ من بني عبس: "بم قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر؛ لم نلق قوما إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا"

قال بعض السلف: كلنا نكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر

وسُئِلَ البطّال عن الشجاعة، فقال: "صبر ساعة "

وهذا كله في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى؛ فإنَّ جهادهما من أعظم الجهاد، كما قال النَّبِي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنِ جَاهَدَ فِي اللهِ»[10]

وقال عبد الله بن عمرو لرجل سأله عن الجهاد: "ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها"

[10] ( ) أخرجه أحمد (٦/٢٠)، والترمذي برقم: (١٦٢١) وقال: وفي الباب عن عقبة بن عامر وجابر، وحديث فضالة حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (١/ ١١).

وقال أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- في وصيته لعمر-رضي الله عنه- حين استخلفه: "إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك"

ويروى من حديث سعد بن سنان، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن حديث أبي مالك الأشجعي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا قال: «لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِذَا قَتَلَكَ أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ، وَإِذَا قَتَلْتَهُ كَانَ لَكَ نُورًا ، أَعْدَى عَدُوّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[11]

وأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف الشاعر فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي *** يكثر أحزاني وأوجاعي

لقلَّ ما أبقى على ما أرى *** يوشك أن ينعاني الناعي

كيف احتراسي من عدوي إذا *** كان عدوي بين أضلاعي

فهذا الجهاد أيضًا يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم

[11] ( ) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٣٤٤٥) من حديث أبي مالك الأشعري وفيه: «**ولكن أعْدَى عَدُوكَ وَلَدَكَ الَّذِي خرج من صلبكَ، ثُمَّ أَعْدَى عَدُوٍّ لكَ مَالَكَ الَّذِي مَلَكت بيمينك**»، وإسناده منقطع في موضعين، فإن محمد بن إسماعيل بن عياش لم يسمع من أبيه، وشريح لم يسمع من أبي مالك الأشعري كما قال أبو حاتم الرازي

يصبر على مجاهدة ذلك غُلِب وقُهِر وأُسِر، وصار ذليلًا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه، كما قيل.

قال غيره:

رُبّ مستورٍ سَبَتْه صبوةٌ *** فتعرى صبرُه فانهتكا

صاحبُ الشهوةِ عبدٌ فإذا *** غَلَب الشهوة صار الملكا

قال ابن المبارك: "مَنْ صَبَرَ فما أقلّ ما يصبر، ومن جزع فما أقلَّ ما يجزع"

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[12]

ووصف بعضهم الأحنف بن قيس، فقال: "كان أشد الناس سلطانا على نفسه عند الغضب")

تبين لنا من كلام بن رجب هنا بعض الآثار الدالة على أهمية الصبر في الفوز والفلاح في القتال، في النصرة في القتال، فقال هذا الرجل من أشياخ بني عبس قال: "لم نلق قوما إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا"، والأكثر صبرا هو الذي له الغلبة في النهاية.

---

[12] ( ) أخرجه البخاري برقم (٦١١٤)، ومسلم برقم (٢٦٠٨).

(قال بعض السلف: كلنا نكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر، وسُئِلَ البطّال عن الشجاعة، فقال: "صبر ساعة ")

لما نتناقش في بقية أنواع الصبر، أو الجهاد الحقيقي الذي هو مع النفس، سيتبين لنا أن كل أنواع الأخلاق السامية والممارسات الصالحة إنما عمادها الصبر؛ فمثلا لما نبحث عن العفّة ستكون العفة صبر ساعة، والكرم أيضا صبر ساعة، مثل الشجاعة أنها صبر ساعة.

يقول: (وهذا كله في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى؛ فإنَّ جهادهما من أعظم الجهاد)

يعني النصر مع الصبر أيضا في جهاد العدو الباطن، وستنتصر على نفسك وعلى الشيطان لما تصبر.

الآن سيورد بعض النصوص الدالة على أن جهاد النفس هو أعظم الجهاد، وبعد ذلك يبين لنا كيف نجاهد أنفسنا حتى ننتصر

(كما قال النَّبِي صلى الله عليه وسلم : «الْمُجَاهِدُ مَنِ جَاهَدَ فِي اللهِ»)

«جَاهَدَ فِي اللهِ»هذه الكلمة تحمل كل المعاني:

- جاهد في الله: الأعداء المتربصين بالإسلام.
- أو جاهد في الله: عدوه الذي بين جنبيه.

(وقال عبد الله بن عمرو لرجل سأله عن الجهاد: "ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها")

هل هذا يُعطّل فريضة الجهاد؟

نقول: لا، النبي صلى الله عليه وسلم، ظلّ يربّي المؤمنين، ويقوي إيمانهم حتى انتصروا على نفوسهم فنصرهم الله عز وجل في القتال، ونحن قرأنا قصة طالوت وبني إسرائيل وكيف أنهم ما استطاعوا أن يتصبروا على شربة ماء، وهي عزيزة طبعا ومن الصعب عندما يكون عطشانا، ويجد أمامه الماء، ويقال له: لا تشرب، لكن لما يعرف أن هذا أمرٌ من الله، وأن عليه الصيام عن شرب الماء، وأن الله سيمده بالعون إذا ترك الارتواء، وأنه سيروي قلبه بالقوة إذا ترك شرب الماء واستطاع أن يصبر على ذلك كان حصل له النصر.

فبهذا نفسر كلام عبد الله بن عمرو؛ نحن ممكن نلاقي أشخاص كلهم يقبلون يقولون نريد أن ننصر دين الله، لكن لما تأتي الحقائق يتفرق الناس؛ **"ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها"**

(وقال أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- في وصيته لعمر-رضي الله عنه- حين استخلفه: "إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك")

وتصور هؤلاء أشياخ الإسلام ينبه بعضهم بعضا على نفسه بأن يضبطها، ويمنعها، سبحان ربي العظيم كيف عرفوا السر فاستقاموا؟ فالإنسان لو عرف من أين يؤتى، وسدّ هذا العيب قوّاه الله .

(ويروى من حديث سعد بن سنان، عن أنس له ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن حديث أبي مالك الأشجعي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا قال: «لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِذَا قَتَلَكَ أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ، وَإِذَا قَتَلْتَهُ كَانَ لَكَ نُورًا ، أَعْدَى عَدُوّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»)

المعنى هنا أن ذاك عدوك، لكن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

(فهذا الجهاد أيضًا يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غُلِب وقُهِر وأُسِر، وصار ذليلًا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه، كما قيل)

ولذلك لما نأتي لكتير من زلّات القدم، إذا لم تكن كل زلات القدم التي يقع فيها الإنسان بسبب أنه لم يصبر تلك الساعة، وصار ذليلا أسيرا في يد شيطانه وهواه .

(قال ابن المبارك : "مَنْ صَبَرَ فما أقلّ ما يصبر، ومن جزع فما أقلَّ ما يجزع ")

أي أصبح بالنسبة له بمثابة الديدن والطريقة التي يعيش بها؛ أنه إذا عوّد الإنسان نفسه، وأصبح من عادته الصبر يجد نفسه قد وُفِّق كل مرة أن يصبر، في مقابل إذا ترك نفسه أن يجزع، وأصبح هذه عادته فيصبح هذا مسلكه الدائم.

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ : «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»)

«يَمْلِكُ نَفْسَهُ» يعني يصبر

(ووصف بعضهم الأحنف بن قيس، فقال: "كان أشد الناس سلطانا على نفسه عند الغضب")

يعني كان يُصبّر نفسه لما يأتيه الغضب.

(واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك، إن عَرَفَتْ منك الجدّ جدّت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك، وطلبت منك حظوظها وشهواتها

كان أبو سليمان الداراني يقول: "كنت بالعراق، أمر على تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك، فلا تلتفت نفسي إلى شيء من ذلك، وأمر على التمر، فتكاد نفسي تقع عليه ".

فذُكر ذلك لبعض العارفين فقال: تلك الشهوات آيس نفسه منها فأيست والتمرة أطعمها فيه فطعمت

قيل:

صبرت على اللذات حتى تولت *** وألزمتُ نفسي هجرها فاستمرتِ

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى *** فإن طَعِمَتْ تاقت وإلا تسلَّتِ

وكانت على الأيام نفسي عزيزةً *** فلما رأت عزمي على الذلِّ ذلَّتِ)

نعلق على ما سبق:

(واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك، إن عَرَفَتْ منك الجدّ جدّت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك، وطلبت منك حظوظها وشهواتها)

هذا التشبيه دائما السلف يضربونه، وهذا التشبيه في مكانه؛ وهو تشبيه النفس بالدابة.

وهذا التشبيه ورد في السُنّة لما وصف النبي صلى الله عليه وسلم المنبت قال«فإنَّ المُنبَتَّ لا أرضًا قَطَعَ، ولا ظَهرًا أبقى»[13]

«المُنبَتَّ» المنبت هو الذي يعمل يعمل، ثم ما يعطي لدابته التي هي نفسه، ما يعطيها الحق الواجب شرعا.

على كل حال اشتهر عند السلف تشبيه النفس بالدابة.

(واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك، إن عَرَفَتْ منك الجدّ جدّت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك، وطلبت منك حظوظها وشهواتها)

(إن عَرَفَتْ منك الجدّ جدّت)، وهذا يعرفه من يتعامل مع الدواب، والدواب عندها عقل إدراك؛ تدرك به المصالح المادية

[13]( ) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق(1179)، والبخاري في التاريخ الكبير (1/ 102)، والبزار كما في كشف الأستار(74)، وابن الأعرابي في معجم شيوخه (1883) واللفظ لهم.

والمفاسد الماديه؛ فترى صاحبها من النوع الجاد تجدّ، وإذا وجدته كسلانا تكسل مثله.

فالنفس مثل هذا؛ إذا عرفت منك الكسل كسلت وطمعت فيك وطلبت منك حظوظها وشهواتها، وإذا عرفت منك الجد ما استطاعت شيء

لكى تتصور هذه المسألة انظروا لشهر رمضان:

نفسك هل تستطيع أن تقول لك في النهار: "اشرب كأس قهوة، أو اشرب كوب شاي؟ والله ما تستطيع نفسك أن تقول هذا لك، طبعا نتكلم عن من تربّى على الصيام، وعرف الصيام، ما تستطيع نفسه أن تقول هذا الكلام له؛ لأنها عرفت منه الجدّ، وعرفت أنه لا تستطيع أن توسوس له حتى في الصيام، لكن ممكن تأتي في أمر آخر ما عرفت منه الجد فتكسّله؛ يتأخر عن الصلاة، تجعله يتأخر عن أذكار المساء، عن أذكار الصباح ما عرفت منه الجد ما تمسك الجد معه.

وحكى هنا قصة عجيبة قصة أبو سليمان الداراني يقول:

(كان أبو سليمان الداراني يقول: "كنت بالعراق، أمر على تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك، فلا تلتفت

نفسي إلى شيء من ذلك، وأمر على التمر، فتكاد نفسي تقع عليه ".

فذُكر ذلك لبعض العارفين فقال: تلك الشهوات آيس نفسه منها فأيست والتمرة أطعمها فيه فطعمت)

تلك الشهوات الأولى يعني آيس نفسه منها؛ قال ما هذه حقي ولا أنا أهلها، فخلاص نفسه أيست.

لكن كان فاتح المجال لنفسه في التمرة؛ فأطمعها في التمرة فطمعت خلاص صارت تزن عليه، تقول له: اذهب واقبض على التمرة لماذا؟

لأنه أطمعها فيها، لكن لو قطع طمعه منها كانت هذه مثل هذه

.

فالله المستعان، الله يعيننا على الاستقامة على دينه، وعلى جهاد أنفسنا كما يحب ربنا ويرضى، اللهم تقبل منا أعمالنا، واغفرلنا ذنوبنا، وارفع عنا وعن المسلمين البلاء، واشف جميع مرضى المسلمين، وارحم جميع موتى المسلمين اللهم آمين، **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**

انتهى اللقاء.